المجاهد عبيدي محمد الطاهر المدعو(الحاج لخضر) قراءة في:

دوره السياسي والعسكري وتصوره لبناء النظام السياسي ومشروع المجتمع

إعداد: الأستاذ الدكتور أجقو علي

جامعة باتنة1 الحاج لخضر

مقدمة:

يعتبر الحاج لخضر واحدا من المجاهدين الأوائل الذين فجروا الثورة وساهموا في إنجاحها خاصة في سنتيها الأولى والثانية بعد النجاح الكبير الذي حققته المنطقة الأولى في إخراج الثورة من الأوراس لتندلع في الشمال القسنطيني تحت مصطلح "هجومات 20 أوت 1955". و شخصية الحاج لخضر ودوره قبل الثورة وإثناءها ومواقفه بعد الاستقلال و أسباب انسحابه كلها أمور إما عولجت بسطحية و إما لم تعالج نهائيا خصوصا تصوره لبناء النظام السياسي الجزائري ورؤيته لمشروع المجتمع. هذه سائل جديرة بالدراسة والبحث لأنه يعتبر الوحيد من صانعي الثورة الأوائل الذين ابدوا رأيهم في هذا الموضوع.

هذه المداخلة، سنحاول من خلالها تسليط الضوء على هذه الشخصية خاصة في ما تعلق بفترة البدايات الأولى للاستقلال.

1- عوامل تشكيل شخصية الحاج لخضر:

- تربيته:

ولد محمد الطاهر عبيدي ـ المعروف بالحاج لخضر ـ بقرية تيقري، دوار أولاد شليح ـ باتنة في 3 مارس 1914، وسط أسرة فقيرة كما هو حال غالبية الأسر الجزائرية في هذه الفترة، ما جعله كبقية أقرانه في قريته كما في بقية القرى الجزائرية يتعلم الاعتماد على النفس منذ الصغر.

وقد امتهن في صباه ومقتبل شبابه، ما تيسر من الأعمال المتواضعة التي كان يوفرها المحيط الأقرب والقريب. مما يعني أن الصبي والشاب الجزائري في الفترة الاستعمارية كانت تناط به مسؤوليات تحمل جزء من الأعباء التي تقع على كاهل الأسرة في وقت مبكر.

ومما كان يميزه أنه شديد التدين والتمسك بقيم الإسلام في كامل ماحل حياته، كما تشهد بذلك مواقفه: الموقف الأول، لم يترك الحاج لخضر، كما تشير المصادر وكما نستنتج من أنه بعد انسحابه من الحياة المدنية والعسكرية الرسمية وانخراطه في الحياة المجتمعية ان باكورة أعماله كان مشروع المسجد الجامع، أداء الصلاة في حياته خارج المسجد، والجمعة الوحيدة التي تخلّف عنها هي، حسب ما تورده المصادر، تلك التي سبقت أول نوفمبر 1954 ، الذي صادف يوم

الاثنين، لظروف قاهرة تعلقت بحضوره الاجتماع مع مصطفى بن بولعيد، عباس لغرور، وشيحاني بشير وغيرهم للتحضير لانطلاق الثورة.

- الهجرة إلى فرنسا:

في سنة 1936 ونظرا لانسداد أفق الحصول على عمل ناهيك عن وظيفة، هاجر إلى فرنسا للبحث عن عمل حيث كانت الفرص متوفرة و أيضا النظرة العنصرية إلى الجزائري كانت أقل حدة: فقد اشتغل أولا في شركة لصنع الأسلاك الشائكة، قبل أن يستقر به المقام في مخبزه تمتلكها سيدة فرنسية في نواحي باريس، ونتيجة لصدقه و أمانته وقيامه بعمله على أحسن ما يرام أصبح مسيرا للمخبزة بعد أن كان عتالا.

وتواجده في فرنسا التي كانت تعيش مخاض الحرب العالمية الثانية واحتكاكه بالمهاجرين الجزائريين بما فيهم الناشطين سياسيا والمنتمين لمختلف الأحزاب السياسية الجزائرية بدأ تفكيره يتحرر من المصطلح المسيطر على نسبة كبير من المهاجرين الجزائريين والمتمثل في توفير وضمان لقمة العيش إلى المسائل ذات الطابع الوطني خاصة ذات العلاقة بالوجود الاستعماري، ومن بين الناشطين الذين كان لهم تأثير قوي على فكر وتوجه الحاج لخضر الوطني، أحمد الوهراني .

ومع بداية الحرب وبوادر الهزيمة المنكرة التي سوف تعصف بفرنسا وجيشها بمعنى عدم قدرة جيشها على الصمود في وجه الجيش الألماني الذي كان في يومه الثالث لعبور الحدود الفرنسية في ثالث أهم مدن فرنسا وهي مدينة ليون وما صاحب ذلك من تدهور الأوضاع الاقتصادية وندرة فرص العمل نتيجة تحول الاقتصاد الفرنسي إلى اقتصاد حرب ، عاد الحاج لخضر إلى الجزائر وبالضبط إلى عين التوتة بباتنة ليوظف ما وفر من مال في امتهان الأعمال الحرة من تجارة وفلاحة ونفل.

- المنفى في تونس:

كان لتجربة الهجرة إلى فرنسا تأثير كبير على فكر وتفكير ونظرة الشاب عبيدي الطاهر، كما سبق و أن أشرنا، حيث أصبح شديد الحساسية للمواقف الظالمة ومواقف الحقرة خاصة حينما يكون مصدرها المستعمرين مدنيين وعسكريين على حد سواء: فقد تدخل ذات يوم ضد دركي،

أهان أمامه بائعا جزائريا متجولا بعربته، فتدخل فورا، ما أدى إلى تطور الأمر إلى شجار مع الدركي، انتهى بالشاب إلى السجن، ثم النفي إلى تونس.

مكث عبيدي الطاهر بتونس نحو أربع سنوات مواصلا اشتغاله بالأعمال الحرة، حيث فتح مقهى مع شريك، وهناك ازدادت علاقته بالناشطين الوطنيين، بالنظر إلى أجواء تونس المناسبة والتي كانت بها جالية جزائرية مهمة من بينها الطلبة، فكان على تواصل بالحركة الطلابية خاصة والتي توطدت علاقاته معها و انفتحت بصيرته على أهمية العلم والتحصيل العلمي، فجسد ذلك في تقديم ما تسمح به ظروفه المادية من مساعدات للطلاب الجزائريين في الزيتونة، سواء كانوا من الباتنيين أو من غيرهم و أيضا بغض النظر عن انتمائهم السياسي، حيث كانت الغالبية منهم بادسيين.

كل هذه العوامل شكلت مرتكزات أساسية تأثر بها عبيدي محمد و أثرت تأثيرا واضحا في بناء شخصيته خاصة في جانبها الوطني وكونت لديه قانعة راسخة بضرورة التحرك في جميع الاتجاهات من أجل الدفع بتغيير الواقع الجزائري.

2- ملامح النضال الأولى والانخراط المبكر في مرحلة الجهاد:

تجلت ملامح هذا النضال في العديد من العديد من الواقف العملية لعل ابرزها:

- استقباله للفارين من أعضاء المنظمة الخاصة بالشرق:

عند عودته من منفاه، كانت الحركة الوطنية تعيش منعرجا حاسما في مسيرتها النضالية، إذ بدأت تلوح في الأفق بوادر الانتقال بالثورة من طور الفكر إلى طور المشروع، وهنا وجد الطاهر عبيدي نفسه تلقائيا في أتون هذا المشروع واستعداده التام لدعمه بكل ما يملك من إمكانات، كما يشهد على ذلك تكليفه باستقبال الناجين من موجة الاعتقالات التي ضربت قيادة ومناضلي المنظمة الخاصة بالشرق الجزائري بعد انكشاف أمرها للسلطات الاستعمارية، حيث كان في بداية صائفة 1950 في انتظار أحد المناضلين الأوائل وهو مسعود بالعقون عند مدخل باتنة الشمالي، الذي كان بصحبته عددا مهما من المناضلين من بينهم رابح بيطاط وسليمان بن طوبال، و تكررت العملية بعد سنة، باستقبال الفارين من سجن عنابة المحاكمين في نفس القضية ومن بينهم يوسف زيغود. لقد وفر الرجل الإقامة والإواء لهؤلاء الفارين والمتابعين لمدة من الزمن، في انتظار نقلهم إلى جهات أخرى أكثر أمنا كناحية آريس.

- وضع شاحنته في خدمة النضال الوطني:

وضع الرجل شاحنته التي يستعملها في التجارة والنقل في خدمة النضال الوطني، حيث لم يتردد في نقل و إيصال جثمان المناضل "محمد شنقل" الذي توفي في سجن عنابة إلى مدينة بسكرة، ، حينما طلب منه القيام بهذه المهمة.

- مشاركته في تفجير الثورة:

بعد عشاء ليلة فاتح نوفمبر، ترأس قائد المنطقة الأولى مصطفى بن بوالعيد اجتماعا وسط غابة خنقة معاش، تم خلاله تشكيل الأفواج الأولى لإنطلاق الثورة و تعيين قادة أفواجها ، كان الحاج لخضر واحدا من بين قادة الأفواج حيث كان فوجه يضم 25 مجاهدا، من بينهم الثائر الأوراسي الشهير قرين بلقاسم. وحدد للفوج القيام بمهمة صعبة ضد هدف عسكري فرنسي سيادي والمتمثل في ثكنة سلاح الدبابات بباتنة. الهجوم على هدف بهذه الأهمية يعتبر تحديا كبيرا مهما كانت محدودية النتائج والتي تمثلت في تحييد عسكري برتبة عريف، لأن الهجوم على هدف مثل ثكنة الدبابات يستوجب تحضيرا استخباراتيا مسبقا كافيا، تخطيطا ملائما، مع توفير الإمكانيات والوسائل المناسبة المادية والبشرية وهذا مالم يكن بحوزة المجاهدين، حيث المهم في مثل هذه المواقف هو ابلاغ الرسالة إلى من يهمه الأمر وهذا ما تم تحقيقه: فقد شعر القادة العسكريون و المسؤولون المدنيون وفلول المعمرين بقوة إيمان المجاهدين وعزيمتهم وشجاعتهم وقوة تحديهم بمهاجمة ثكنة دبابات بوسائل متواضعة جدا.

وعقب عمليات ليلة الفاتح من نوفمبر عين الحاج لخضر على رأس قطاع باتنة و مقره جبل الشلعلع و الذي يغطي جغرافيا مساحة شاسعة تمتد غربا إلى مشارف برج بوعريريج والمسيلة. وكان على قائد هذا القطاع والذي هو الحاج لخضر ضرورة تنشيط قطاعه، وفي هذا الإطار نفذ عددا من العمليات تمثلت في:

- تخريب سكة القطار ما بين باتنة وبسكرة
- مهاجمة مزرعة المستوطن "بوزو" بسريانة، وهي العملية التي شاهدت سقوط أول شهيد بالقطاع وهو عمر أقرور.
- تصفية المستوطن فياما عصر 14 يونيو 1955، وهو من جبابرة المستوطنين بالناحية.

-الحاج لخصر وأزمة القيادة بعد استشهاد مصطفى بن بولعيد:

وبعد نحو 3 أسابيع من استشهاد بن بولعيد تقرر عقد اجتماع في "تاغدة"، للنظر في الوضع ومحاولة إيجاد خليفة لقائد المنطقة. وقد حضر الاجتماع 11 مسؤولا، في غياب معظم المناطق الشرقية، بدءا بعاجل عجول وعباس لغرور ولزهر شريط. و بعد مناقشات ماراطونية وخلافات حادة وصلوا إلى اتفاق يقضي بحل مؤقت يتمثل في تعيين قيادة جماعية للمنطقة.

ورغم محاولات عميروش في سبتمبر 1956 إيجاد حل لمشكلة القيادة في الولاية التاريخية، والذي هو موضوع معقد ومازال إلى حد الساعة يسيل حبرا كثيرا في انتظار حسم هذا الموضوع من قبل المؤرخين، إلا أن لم ينجح بسب المعلومات المظللة التي كان يتلقاها وخاصة حول عاجل عجول حسب ما يذكر تابليت ومحمد بن فليس. والذين يذكرون بأن الحاج لخضر يرجع فشل عميروش في مهمته آنفة الذكر، إلى وقوعه تحت تأثير عمر بن بولعيد وعايسي اللذين قاما بتوجيهه خطأ بشيطنة عاجل عجول باعتباره مصدر مشاكل الولاية.

وبعد محاولة تصفية عجول مساء 19 أو 20 أكتوبر ، غضب الحاج لخضر، لأنه كان الشخص الوحيد الذي يحظى بثقته، وبفضله قبل دعوة عميروش لحضور الاجتماع الذي تحول إلى نوع من الإدانة التي ترتب الإعدام. ومن ثمة طلب من عميروش أن يغادر الولاية فورا، تجنبا لردود فعل جنود عجول.. وتطوع لتأمين طريق عودته ومرافقيه إلى غاية جبال بوطالب بالمنطقة الأولى من الولاية.

- قيادته للولاية الأولى:

عرف على الحاج لخضر أنه كان لا يطلب المسؤولية ولكن تفرض عليه: ففي الغالب الأعم كان يفضل اسنادها للمثقفين، حيث كان أول كاتب له هو الشهيد محمد لعموري، كما كان حكيما في حلله للمسائل المستعصية و أيضا قدرته وحكته وطريقة تحكمه في الأمور.

وقد تم تعيينه قائدا للولاية بأمر من محمد لعموري في نوفمبر عام 1958 الذي قال له" يا عمي الحاج هذا أمر لا بد من تطبيقه." وقد عقد فيما بعد اجتماعا مع سي الحواس وعميروش وبوقرة لتقييم وضعية الولاية بمكان يسمى سرج الغول ما بين الولاية الثانية والثالثة ، أما علي كافي فرفض حسب ما ورد في كتاب تابليت وبن فليس، وبعث نائبه أمين خان للاستماع فقط، وبلّغ لمين خان القيادة عن طريق الراديو بكل مستجدات وقرارات الاجتماع، وتم استدعاء القادة الأربعة، لكن بعد استشهاد سي الحواس وعميروش تردد الحاج لخضر في البداية، ثم اتخذ قرار الخروج إلى تونس، في إطار المساعي لتقييم وتعزيز الثورة، وعقد عديد الاجتماعات تحت لواء قيادة الثورة.

ويروى أنه عندما همّ المجتمعون بالمغادرة بعد أخذ القرارات المناسبة، عانق العقيد عميروش الحاج لخضر أمام الضباط والقادة وقال له" أنت يا عمي الحاج "مرابط"، أي وليّ صالح، لن تقتلك فرنسا وستحضر الاستقلال، أما نحن الثلاثة فسننال الشهادة خلال هذه الثورة..".

وبالفعل تحققت هذه النبوءة باستشهاد بوقرة، سي الحواس وعميروش، وعاش العقيد الحاج لخضر إلى ما بعد الاستقلال لسنوات. وبقي الحاج لخضر على رأس الولاية إلى جوان 1959.

وللعلم أنه تعاقب على حكم الولاية: مصطفى بن بوالعيد أكتوبر 1954-مارس 1956، فترة خلاف مارس 1956-ديسمبر 1956، محمود الشريف ديسمبر 1956- ديسمبر 1957، محمد لعموري ديسمبر 1957 أفريل 1958، أحمد نواورة أفريل 1958 نوفمبر 1958، عبيدي محمد الطاهر نوفمبر 1958 جوان 1959، مصطفى مراردة جوان 1959 ماي 1960، علي سوايعي ماي 1960 فبراير 1961، الطاهر زبيري فبراير 1961 يوليو 1962.

- موقفه من أحداث صائفة 1962

كان ولاء قائد الولاية الأولى محسوبا لجماعة كريم بلقاسم ثم الحكومة المؤقتة لاحقا وذلك لعلاقة الحاج الوطيدة بقيادة الولاية الثالثة في عهد كل من السعيد محمدي وعميروش ، وبعد احتدام الصراع بين الحكومة المؤقتة وجماعة المكتب السياسي بتلمسان، شكل العقيد الطاهر الزبيري مجلس ولاية جديد مالبث أن انحاز إلى صف هيئة الأركان ، غير أن هذا لم يمنع الحاج من الحفاظ على ولائه لكريم بلقاسم والحكومة المؤقتة، حتى آخر لحظة اجتماع مجلس الثورة بطرابلس في دورته الأخيرة (مايو - يونيو 1962).

وأثناء استفتاء تقرير المصير عـاد إلى الجزائر واتصل ببنبلة الذي انشغل عن استقباله في البداية، لكن لاحقا أعلن ولاءه لمجموعة المكتب السياسي بتلمسان وتكرس ذلك رسميا بانتخابه نائبا في المجلس التأسيسي ابتداء من 20 ستبمر 1962

- انسحابه من الحياة العسكرية والسياسية:

الحاج لخضر كان من الذين يعتقدون أن السلطة بعد الاستقلال ستؤول إلى من صنعوا الثورة في الداخل، لكن بعد الاستقلال حدثت أزمة صائفة 1962 والتي كادت ان تحرق الأخضر واليابس، ولد لدى الحاج لخضر كما لدى الكثيرين من صانعي الثورة ومجاهديها الإحساس بالمرارة وخيبة الأمل، حيث وجد نفسه يغرد لوحده بعد ان التزم كثير من رفاقه الصمت ورضوا بما قدم لهم من مسؤوليات، مما أسهم في تهميش الجبهة. و كان ذلك أحد اسباب انسحابه من الحياة السياسية والعسكرية وتفصيله الانخراط في النشاط المجتمعي والأعمال الخيرية، كما يؤكد ذلك شخصيا، حيث يقول وبتعبيره: " حينما لم نجد من يقاوم معنا انسحبنا".

واختصارا يمكن إعادة انسحاب الحاج لخضر إلى:

تهميش الجبهة ورجالاتها

- تسريح المجاهدين وعدم دماجهم في المؤسسات العسكرية والأمنية للدولة

- الفردانية والتسلط والفرعونية

- إعطاء السلطة لمن لا يستحق

- تصوره لبناء النظام السياسي و مشروع المجتمع:

- بناء النظام السياسي:

من بين الأمور التي أثارت اهتمامي وأنا أبحث عن معلومات حول الحاج لخضر، رغم شحها الواضح، كان شديد الوضوح فيما تعلق ببناء النظام السياسي الجزائري ومشروع المجتمع، حيث عبر عن ذلك في أكثر من مناسبة، حيث يرى أن نظام الحكم يجب أن يقوم على المرتكزات والمبادئ التالية:

- الإيمان بأن الجزائر أمانة الشهداء وهي ملك لكل الجزائريين
- استمرار حكم الجبهة وأي تهميش لها لا يخدم مصلحة البلاد
- الدولة القوية العادلة ويقصد بذلك عدم التهاون في الضرب بيد من حديد مع كل من لا يحترم قوانينها وقرارتها، بمعنى اضعاف هيبتها
- القيادة الجماعية القائمة على الحوار والتشاور بعيدا عن الاستفراد بالقرارات خاصة المصيرية وهو ما يعبر عنه بالابتعاد عن "الفرعونية" أو "رحمة الإنسان الواحد" والتي يعني بها الدكتاتورية في الحكم وفي التسيير وفي تولي المسؤوليات والوظائف وربما هو يشير هنا إلى إقدام الرئيس احمد بن بلة على الجمع بين سبع مسؤوليات: رئيس الدولة ، رئيس الحكومة، وزير الدفاع، وزير المالية، وزير الخارجية، وزير الإعلام ومسؤول الحزب.
- اسناد المسؤوليات لمن قاموا بالثورة ومارسوا العمل الثوري ممن تتوفر فيهم الطهارة، النزاهة، الإخلاص، و الشجاعة وتغليب مصلحة الجزائر والثورة على ما سواها
- تبني النهج الاقتصادي القائم على تثمين قيمة العمل، المبادرة الفردية، المنافسة الحرة
- تهيئة جيل من الشباب المتعلمين والمثقفين والمتشبعين بالقيم الوطنية وقيم الثورة لتحمل المسؤوليات والوظائف خلفا لجيل الثورة لأنهم الأساس لمستقبل البلاد

مشروع المجتمع:

المشروع الذي تصور الحاج لخضر وضعه للمجتمع الجزائر بعد الاستقلال يأخذ بعين الاعتبار الأمور التالية:

- الحفاظ على نهج الثورة وحماية الوطن وتوحيد ابنائه
- احترام مبادئ وقيم الثورة الأصيلة من دين ولغة وتاريخ وتراث

- إدماج المجاهدين في المؤسسات العسكرية والأمنية للدولة
- العدالة
- التضامن
- الكفاءة معيار تولي الوظائف والمسؤوليات
- احترام المبادرة الفردية
- التنافسية
- احترام العمل
- محاربة التواكل
- تشجيع التعليم والعلم
- احترام المتعلمين والمثقفين

- تفرغه للعمل الخيري:

لما رأى أنه كمن يصرخ في الصحراء ولما رأى ان رفاقه في الجهاد قد التزموا الصمت، انسحب الساحة بمرارة وانخرط بحماسة في النشط المجتمعي والعمل الخيري: فقام سنة 1980 بتأسيس جمعية إسلامية بهدف تأسيس مركز إسلامي فكان المعهد العالي للعلوم الاسلامية الذي ألحق آنذاك بجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة ثم أعيد إلحاقه بجامعة باتنة لاحقا ، وقد بني المعهد والمسجد على أرض مطار عسكري أيام الاحتلال الفرنسي تنطلق منه الطائرات للقصف حيث قال في هذا الصدد: " هذا المكان الذي جعلته فرنسا جحيما تقصف منه الجزائريين، أنا سأقصفها انطلاقا منه، ولكن بالعلم ".

ولكن بالعلم.."، لأنّ المكان الذي اختير لإنشاء المركب الإسلامي، كان على أيام الاحتلال الفرنسي مطارا عسكريا تنطلق منه الطائرات الفرنسية لقصف مناطق باتنة وما جاورها .

وظل ساهرا وراعيا لهذا المشروع الكبير إلى ان فارق هذه الحياة.

استنتاج:

كان الحاج لخضر مجاهدا صادقا و مواطنا صالحا متدينا إلى جانب كونه مناضلا وطنيا وفيا لوطنه وقد عرف عنه تميزه بالجرأة وعدم المجاملة حيث قال للرئيس الشاذلي بن جديد أثناء

زيارته لباتنة: "سيادة الرئيس الجزائر ليست مثل الدول الإفريقية الأخرى، إذا تخدم الجزائر فأنا وراءك، أما إذا انحرفت عن هذا الطريق فسأكون أول من يقاومك."

وكان من جهة أخرى قوي الشخصية صعب المزاج صادق القول والفعل فلم يتوانى في تطبيق عدة أحكام بالإعدام للحفاظ على الاستقرار وعاقب أحد جنوده لقتله طفلا فرنسيا صغيرا حيث قال: "صعدنا إلى الجبل لمحاربة الذين رفعوا ضدنا السلاح ولم نصعد لقتل النساء والأطفال والأبرياء "، وكان يكره الظلم ونصيرا للمظلومين ، يعزف عن تولي مناصب القيادة ويرى أن دور الشباب في خدمة الوطن هو طلب العلم.

كما كان له تصور جد متقدم فيما تعلق ببناء النظام السياسي ومشروع المجتمع الذي تم فرضه في بداية الاستقلال والذي ابدى انزعاجه منه نظرا لعدم أخذه بعين الاعتبار خصوصيات الجزائر وثورتها و أيضا كونه نهج لا يثمن قيمة العمل ولا يحترم مبدأ المبادرة الفردية، ومن ثمة ننبأ بفشله ، وهذا ما حدث بالفعل.

ملاحظة: للبحث مراجع